

الأول والأخير ...

كنت أيامئذ في العشرين من عمري .
وكانت دماء الشباب تجري في عروقي فتملأني
قوة وفتوة ومرحاً . ولم أكن قد رأيت
القاهرة ، فقد عشت تلك المدة من حياتي

في إحدى المدن الصغيرة . فلما قيل لي إنني سأسافر
إلى القاهرة لأنهم علوي رقص قلبي طرباً وغبطة .
وسهدت أياماً لعظم فرحي . فلقد كنت أسمع عن
جمال القاهرة وعن أخذ أهلها بأساليب الغرب .
فكانت أعز أمانى أن أراها وأجوس خلال شوارعها
الواسعة الطويلة التي كانت تنقص مدينتي الصغيرة
وأنتيت القاهرة . ولم أعم أن صادقت بضعة
من شبانها . رحت وإياهم نفشى دور اللهو الحرام ،
ونقضى جل ليالينا في المواقف بين أحضان الفتيات
الأجنبيات اللاتي ييمن أعراضهن لكل طارق
ما دام يملك المال الذي يسد به أفواههن الجشعة ...
وصارت حياتي على هذا النوال بضعة أشهر .
ثم ابتدأت أشعر بأن هناك فراغاً عميقاً يضرب
أطنايه في حياتي ، ومكاناً كبيراً ظل شاغراً في قلبي .
ولم أعرف سر هذا الفراغ ولا ذاك المكان الشاغر
في أول الأمر . ولكنني عند ما فكرت فيهما ملياً
عرفت أنني في حاجة ماسة إلى حب أملأ به فراغ
حياتي وقلي ، وتسمو به عواطفني التي انحطت ...
وتتطهر به نفسي التي دنست ...

وعجلت في البحث عن هذا الحب فقد كنت
أحس بالحنين إليه يتضاعف ، بحثت عنه في كل
مكان ، في شوارع القاهرة ، وفي منازل أصدقائي
وحتى في دور اللهو التي كنت أتردد عليها . ولكن

ذكرى حب

أَفْصُوصَةٌ مِصْرِيَّةٌ
يَقْلُمُ الْإِدْنِ عَبْدُ الْحَلِيمِ مُحَمَّدُ الْعِشِيرِي

تأخذني رعدة رهيبة ، ويستولي على أسي عميق
كلما رجعت القهقري عشرة أعوام وأحييت في تخيلاتي
ذكرى ذلك المهد البائد ، عهد شبابي الراح بالشفاء
والآلام ، عهد شبابي الذي يطوي بين أيامه أحلى
أمانى ، ويلف في أكفانه السود الخيفة أول حب
دب إلى قلبي ، وسعدت وشقيت به نفسي !
إنني لأود الآن من قرارة نفسي أن أرك ذلك
المهد جانباً ، وألا أعيد ذكره المرة الألفية إلى ذهني
حتى لا تثير أشجان قاي ... ولكن ... ولكن
المجيب أن قاي هو الذي يدفعني دفعاً للمود إلى
هذا المهد بالرغم مما فيه من إيلام له . ولملعله فعل هذا
لأنه يريد أن يعيش ثانية في جو تلك الأيام البعيدة
وأن يتذوق مرة لذة ذلك الحب الهائل الذي كان
يملاء حينذاك ...

وأنا ... ما ذا أفعل لو خالفت رغبة قلبي ...
ورغباته لما تزل كل ما أعنى به في حياتي ؟ حسن .
سأطبع قلبي — وليست هذه هي المرة الأولى
التي أطبع فيها على نسيء لا أحبه — ولأعد
إلى ذلك المهد فانه وإن كان لا يحمل لي في ثناياه
إلا الشقاء ، فإن في استعادة هذا الشقاء لذة
عظيمة قد لا يجدها من يستعيد عهداً سعيداً من
عهود حياته ... وما أجل أن يعيش الإنسان مرة
ثانية مع الماضي وفي جو الذكرى ، ذكرى حبه

أربع مرات أو خمساً . وكانت في كل مرة يقع
بصرها على "تفادشرقتها مسرعة؛ ولعلها كانت تفعل
ذلك بدافع الخجل مني ، أو أنني لا أعرف تعليلاً
لذلك غير هذا التعليل ..

بيد أن هذا لم يكن ليغير رأيي فيها . فقد كنت
واثقاً أنها هي الفتاة التي ستملأ فراغ حياتي وقلبي
بالحب .. وقد كان .. ولم يحب ظني عندما ابتسمت
لي يوماً ..

كان هذا في الصباح على ما أذكر ، وكنت
قد بكرت في الجلوس بشرفتي . وجأة - بمد قليل -
أطلت برأسها الجميل من إحدى نوافذ المنزل الذي
تقطنه .. وكانت هذه أول مرة أراها فيها تطل
من نافذة . فاردت أن أنتهز هذه الفرصة وأعبر
لها عما أحس نحوها ولا سيما أنني وجدتني في تلك
المرة باسمه الثغر ، مشرقة الوجه فلم أخف على نفسي
منها ، ولم أجد أفضل من الابتسام لهذا الذي أريد .
فابتسمت لها . ابتسمت بسمة سكبت فيها كل قواي .
وكانت مفاجأة ملأني سعادة وغبطة حينما ردت عليّ
بسمتي ببسمة منها . أجل وإيم الحق لقد ابتسمت لي ،
وابتسمت لي في اشراق وصفاء ومحبة !

لو سألت يوماً ما ما أسعد أيام حياتي ...
لأجبت فوراً أنها هي الأيام التي كانت تبسّم لي فيها
تلك الفتاة . وإنني لأطوي الآن مراحل حياتي فلا
أجد يوماً ذقت فيه سعادة تداني هذه السعادة التي
كنت أشربها تفعمني كلما ابتسمت لي . فلقد كانت
بسمتها بمثابة نور يفرح حياتي . ويبدد ظلمات نفسي
وكانت بمد هذا نفي "أمامي الطريق إلى حياة جديدة
تقوم دعائهما على الحب ... والأحلام ...
وأنا ممن يمشقون تلك الحياة ...

هباء ذهب بجني . فما وجدت الفتاة المنشودة .
الفتاة الهيفاء القد ، الفاتنة الوجه ، الطاهرة الروح
والقلب ، التي رسمت صورتها في خيالي وأحلامي
مراراً ...

وباغ مني اليأس مبلغه في المشور على حبي
المرجو ... وظلت حياتي فارغة قاحلة كما هي ، حتى
كانت إحدى الأمسيات وكنت جالساً في شرفة
الطابق المتواضع الذي استأجرته في أحد البيوت
لأنفسي فيه مدة إقامتي بالقاهرة ، وإذا بفائدة ما رأيت
وجهاً أجمل من وجهها ، ولا قدراً أرشقى من قدما ،
تبدو أمامي في شرفة المنزل المواجه للمنزل الذي أقيم
فيه كما يبدو الحلم الجميل في خيال النائم . فاستطمت
أن أمنع صرخة خافتة كلما دهش وإعجاب

لقد كانت هذه الغادة هي نفس الفتاة التي رسمت
صورتها في خيالي .. نفس الفتاة التي ستهبني الحب !
وحسبت نفسي أحلم في أول الأمر .. ولكن
هذا الوهم لم يلبث أن تبدد .. ووجدتني بين يدي
الحقيقة الحلوة الجميلة ..

ورأيت الفتاة فمادت في دلال من حيث أنت
واختفى شبحها عن ناظري ؛ ولكنه ظل عالفاً
بذهني ...

ولما أفقت من غيبوبي ولم أجدها أمامي ، عرّنتي
انتفاضة ، وخيل إلي أنني كنت في الجنة وطردت !!

وطلقت دور اللهو . واندفعت بجميع قلبي إلى
هذه الفتاة . فما كنت أغادر شرفتي إلا للحظات
قصيرة . ونسيت مدرستي فكنت أذهب إليها يوماً
وأقطع أياماً .. ومع هذا فأنني لم أرفقني إلا قليلاً ..

ذبلنا ... أنظر إلى وجهك ألا ترى كيف شحبت .
أنظر إلى جسدك ... ألا ترى كيف نحل ؟
ونظرت إلى عيني ، ثم إلى وجهي وجسدي ،
وعندئذ أجفنت والدهشة تعقد لسانى . فقد وجدت
صديقى على حق فى ملاحظاته . ووجدتني قد تغيرت
حقاً وتغيرت كثيراً

وعجبت كيف لم أظن إلى هذا من قبل ...
وظللت حزينا للتغير الذى طرأ على أربعة أيام أو خمسة
لا أذكر ... ثم عدت أتابع حياتى ... الحياة التى
تقوم دعائهما على الحب والأحلام ، وتعلأها بهجة
وجلا بسمه فتاة ...

ودرجت الأيام بحدة فى طريقها المجهول الذى
لا يعرفه إلا الله .. إلى أن كان يوم من أيام الصيف
رهيب الجو حار الهواء راكده . وكنت جالسا
كمادنى فى الشرفة أنتظر بسمه فتاتى التى احتجبت
فى ذلك اليوم فلم تبد لي حينما دخلت على صاحبة
المزل الذى أسكنه — بعد أن استأذنت على —
وقدمت لي بريقة باسمى وصلت إلى المزل منذ ثوان .
وكان مانى هذه البريقة صروعا أليما .. أليما جداً ..
حتى تمنيت لو مت قبل تلاوتها ..

كانت البريقة من أى تقول لي فيها إن أبى قد
مات فجأة ليلة الأمس « بالسكتة القلبية » وتطلب
منى أن أعود إلى مدينتى سريعا لألتحق بمعمل عثرت
لي عليه هناك حتى أعول أسرتنا بعد أن مات أبى
الذى كان يعولها ...

وأظلمت الدنيا فى عيني .. وأخذنى ذهول عميق
أين أنت الآن يا فتاتى لتبتسمى لي ، ولتبدى
ببسمتك بعض ما عراني من الهم والحزن ؟ ... أين
(٦)

فقد كانت — على الأقل — تبمدنى عن حياتى
الحقيقية التى لم تكن ترخر إلا بالهموم . وكان
حبي لهذه الفتاة يزداد كل يوم . وأصبح أملى
أن أراها دائماً تبتسم .. تبتسم لي . فما كنت أحس
بالحياة تفرق بين جنبى إلا إذا ابتسمت لي . وما
كنت أجد لذة للعيش إلا إذا لاقتنى ببسمتها كل
صباح ، ولا للنوم إلا إذا ودعتنى ببسمتها كل
مساء ...

ومرت الأيام مر السحاب وأنا لا أعلم إلى أى
مصير تقودنى حياتى هذه . وزارنى يوماً أحد
أصدقائى ممن كنت ألو معهم فى الماضى فما إن
رأنى حتى صرخ
دهشاً وهو يقول :

— قاسم ! يا لله ... هل أصدق هذا ... ؟

قلت : ماذا ... ماذا تعنى ؟

قال وهو يحملنى فى عيني والدهش لا يزال
مرتبها على وجهه :

— منذ كم رأيت نفسك فى المرآة ... ؟

قلت : منذ قليل ...

قال : عجبا ... وهل تعرف أنك قد تغيرت ؟

قلت : كلا ...

قال : إذا تعال ...

وجذبني من يدي إلى مرآة كانت بالقرب منا
ثم طلب منى أن أنظر إلى نفسى فيها . فلما فملت قال :
— والآن تأمل فى نفسك جيداً وخبرنى ماذا
يبدو عليك : على وجهك وجسدك ...

فهزرت رأسي متعجبا فما رأيت جديداً فى
وجهي ولا فى جسدي . فماد صديقى يقول :

— أنظر إلى عينيك جيداً . ألا ترى كيف

بضع ورقات منها على الأرض التقطتها في الحال
ووضعتها بين صفحات كتاب كان في يدي

وعند ما تحولت لأسير سقطت على يدي من عل
قطرة من دموعها ... من دموع تلك الفتاة التي
أحببتها، والتي خلق مني حبها إنساناً جديداً يختلف
عما كنت في الماضي كثيراً . فلم أستطع أن أمنع
نفسى أنا أيضاً من البكاء ، وكان بكأى مرراً مكتوماً

أنا خجول .. خجول جداً . واعترف بأن
خجلى كان هو السبب في أنني لم أعرف إلا الآن ..
إلا متأخراً ... أن تلك الفتاة التي أحببتها تحبني
أيضاً . فكثيراً ما فكرت في أن أسألها من شرفة
الطابق الذي كنت أنزل فيه : هل هي تحبني أولاً .
ولكنى كنت أخجل فأظل جامداً مكتفياً بالبسمات
التي أنلفهاها منها في كل يوم ..

كان حبي عجيباً ، ولا أدري كيف استطاع أن
يعيش إلى تلك اللحظة وإلى ما بعدها وهو قانع
بتلك البسمات ..

آه لو كانت هذه الجرأة التي استطعت بها أن
أخاطب حبيبتي ، ومن شارع قديم فيه عابر فيسمع
كلامي قبل الآن ؛ إذأ لاستطعت أن أجني
ثمار حبي ، ولكن الخجل ... أضاع مني الفرص
السواح وأضاع معها سعادتي !

لأعرف كيف استطعت أن أعيش في مدينتي
بعد أن عدت إليها ، ولكن الشيء الذي لن أنساه
هو أنني كنت أحياء فيها كالأغرب عن هذا العالم .
كنت أحياء فيها كطائر شارد تائه في بلد لا يعرفه
ولا يعرف أحداً فيه . وكانت حياتي تسير على وتيرة

أنت لتعبدى بيسمك إلى قلبي بمض الأمن
والاستقرار ؟

ولكن أحداً لم يجب ... وسقطت على راحتي
بضع قطرات من العرق كانت عاقلة يجيبني !

وكان يوماً مشهوداً من أيام حياتي هو ذلك
اليوم الذي حزمت فيه أمتعتي لأبحر القاهرة ...
أقسم أنني ذرفت كثيراً من الدموع في ذلك
اليوم ... ولعمري ما ذرفت هذه الدموع حزناً على
والدي الذي مات ، كلا بل حزناً على فتاتي التي
سأخلفها بمد قليل ... وعلى بسمتها التي كانت تملأ
حياتي بهجة وجمالاً .. ثم .. ثم على حبي وسعادتي
وكل منهما سيدوي !

وخلفت المنزل وفي قلبي لوعة وأسى . وما كدت
أقف على أرض الشارع وأرفع رأسي إلى النافذة
التي اعتاد وجه حبيبتي أن يطالني منها كل يوم
حتى وجدتها تطل منها وعلى فيها نفس البسمة
الساحرة التي كنت أحس وأنا أنلفهاها منها بالحياة
تترقق بين جنبي ، وفي يدها زهرة صغيرة كانت
تداعب بها حافة النافذة في هدوء ...

طار عقلي من رأسي في تلك اللحظة . ولم أعد
أسيطر على قواي . وتعالى صوتي مدوياً حزيناً وأنا
أقول لها بجرأة عجبت - فيما بعد - كيف توفرت لي :
- لا تبترسي يافتاتي ، فاني مسافر إلى مدينتي ؛

مسافر الآن ولن أعود ...

ونظرت إليها فإذا بها تنظر إلى في دهش
وذ هول ، وإذا بيسمها قد تلاشت ، وكأنما عمتها
تلك الدموع التي رأيتها تنحدر من عينيها على شففتها
ووجدت يدها تضغط على الزهرة في قوة فتناثرت

الماضي . ولم يكن قد طرأ عليه تغير ما ، إلا تلك الشمرات البيضاء التي عمت رأسه ولحيته وشاربه . ومات عليه أسأله قبل أن أخطو إلى داخل الدار :

— هل سيدتك الصغيرة هنا ؟

فلم يبد عليه أنه فهم سؤالى . فشرحت له . وعندئذ بدا على وجهه أنه فهم ما أرمى إليه . فغمغم قائلاً في صوت أبح ظهر فيه شيء من الاضطراب :

— أنتى ... المرحومة « اعتماد » ؟

كانت كلما صدمة قوية كادت أن تذهب بعقلي ؛ فاعتماد هذه هى حبيبتي بعينها ، فقد سمعت أمها يوماً تنادى بهذا الاسم . جمعت أطراف شجاعتي وصرخت فيه بصوت لا أدرى كيف خرج من حلقوى :

— وهل ماتت ؟

— من عام ...

— كيف ؟

— مرضت ... ولكن أحداً لم يعرف مرضها . وكل ما نعرفه أنها كانت تهذى كثيراً في أيامها الأخيرة . وقد سمعتها أنا بنفسى وهى تهذى قائلة : « لقد كنت أحبه ... وقد مضى ... سافر إلى مدينته وإن يعود . فافائدة الحياة من بعده » وكثيراً ما حاول أهلها أن يعرفوا هذا الذى كانت تحبه . ولكنهم أخفقوا ... وماتت سيدتى اعتماد وسرها فى صدرها

وأحنى الرجل رأسه على صدره فى حزن وقال :

— رحمها الله ...

وفهمت كل شيء ... فتوليت من أمامه فى

واحدة وأسلوب واحد : من بيتى إلى مقر عملى ، ومن مقر عملى إلى بيتى ، لم يجد فيها يوماً جديداً وانكسبت على عملى أحاول أن أفنى فيه نفسى لأنسى ، ولكن الذكريات كانت تلح على دائماً فلا أستطيع أن أطردها عني إلا بعد أن تجول الدموع فى عيني .

ولطالما تراءت لى بسمتها من وراء تلك الدموع فلات قلبى حسرة وألم ، لأنها كانت تبدو لى فى كل مرة حزينة شاحبة تمحوها شيئاً فشيئاً عن الشفتين اللتين ارتسمت عليهما .. دموع !

ووجدتني يوماً أدخر بمض الجنيهات التى أتناولها فى كل شهر من عملى . وكنت أسأل نفسى كثيراً الم أدخر هذه الجنيهات وأنا فى أشد الحاجة إليها . فما كنت أجدر دافياً . . . إننى أدخرها وكفى . . . وما إن مضت ثلاثة أعوام حتى كنت قد ادخرت مبلغاً من المال لا هو بالكبير ولا بالضئيل وبعد أيام من مرور هذه الأعوام الثلاثة كنت فى طريقى إلى القاهرة ... لم ؟ لأخطب فتاتى إلى أهلها بعد أن حاولت فى تلك الأعوام الثلاثة التى مرت أن أسلوها فلم أستطع !

وهبطت إلى أرض القاهرة مهدجى ومسرحه ، وما إن قاربت الحى الذى كنت أقيم فيه حتى هاجمتني ألوف الذكريات ... وجدت الحى كما هو ... كما تركته منذ ثلاثة أعوام وبضمة أيام . ودنوت شيئاً فشيئاً من دار الفتاة التى أحببتها فى كل هذا الوجود وطفنت على سعادة غريبة لا عهد لى بها ، واشتد وجيب قلبى وازدادت دقاته . . . ووجدت « بواب » الدار فى (كشكه) الصغير كما تعودت أن أراه فى

خطوات ذاهلة وأنا أُنتم في ذهول وقد اعتراني
شبه خيال :

— أجل ، رحما الله ...

وسرت كثيراً لغير وجهة في ذلك اليوم ...
وأخيراً عند ما أنفتحت من ذهولي بعض الشيء —
وجدتني في القطار المسافر إلى مدينتي

وكان أول ما فمات عندما عدت إلى منزلي في
المدينة أن تناولت الكتاب الذي كنت أضغ بين
صفحاته الورقات التي تناثرت من تلك الزهرة التي
كانت في يد « اعتماد » يوم أن بارحت القاهرة عقب
وفاة أبي ... وأخذت واحدة منها وضعتها على كفي
وكانت قد جفت ... تماماً كما جفت حياتي في ذلك
اليوم الذي عرفت فيه أن فتاتي قد ماتت . وخيل لي

وأنا أنظر إليها أن وجه « اعتماد » قد رسم عليها ..
ورأيت فيها وعليه تلك البسمة التي ربطتني بالحياة
مدة طويلة . ولكنها كانت تبدو لي شاحبة حزينة
تمحوها شيئاً فشيئاً عن الشفتين اللتين ارتسمت
عليهما — دموع !

وغابت البسمة وغاب الوجه .. وخيل لي أنني
أسمع هاتفاً يهتف في صوت كئيب خافت ، ولكنه
هادئ رهيب :

— « لقد كنت أحبه وقد مضى .. سافر إلى
مدينته وإن يعود . فما فائدة الحياة من بعده ! .. »
وأعدت ورقة الزهرة إلى مكانها بين صفحات
الكتاب ... ودمعت عيناى !

عبد العظيم محمود العشيري

الملابس القطنية الخفيفة

هي

ملابس الصيف القلائد

تشكيلات جميلة رائعة . ومنسوجات مختلفة مغرية

والوان س—احرة أخاذة

تقدمها اليكم

شركة مصر للغزل والنسيج

إحدى مؤسسات بنك مصر